المحاضرة10: اتجاهات الرواية المعاصرة

أولا - الرواية الرمزية.

حيث تحررت الرواية من الدراسات الاجتماعية والنفسية، وظهرت حوادث الرواية تهتز حقيقة الظل أمام القارئ، ودعا الأدباء إلى مزيد من المرونة وأظهروا موقفهم المزدري من السرد المصنوع. و الاتجاه الرمزي في الرواية العربية ظهر متأخراً عن الاتجاه الرومانتيكي، و هو ظهر في بعض نتاجات الكتّاب العرب من أمثال نجيب محفوظ (اللص و الكلاب، الشحاذ، أولاد حارتنا، السمان والخريف، الطريق)، و يحيي حقي، والنقطة الهامة أن الرمزية المحضة علي طريقة الغربيين نادرة في الروايات العربية[i].

ثانيا - الرواية الجديدة.

لعل أهم ما تستميز به الرواية الجديدة عن التقليدية، إنها تثور على كل القواعد، وتتنكر لكل الأصول، وترفض كل القيم والجماليات التي كانت سائدة في كتابة الرواية التي أصبحت توصف بالتقليدية؛ فإذا لا الشخصية شخصية، ولا الحدث حدث، ولا الحيز حيز، ولا الزمان زمان، ولا اللغة لغة؛ ولا أي شيء مما كان متعارفا في الرواية التقليدية متآلفا اغتدى مقبولا في تمثل الروائيين الجدد.

ثم إن ميل الروائيين الجدد إلى إلحاق الأذى بالشخصية الروائية ومضايقتها داخل النص السردي تبلغ في بعض الأطوار، حد الاضطهاد؛ ثم ميلهم إلى النزعة الأسطورية في تفسير بعض القيم أو تحليلها، وفي تقديم بعض الشخصيات أو رسمها؛ ثم ميلهم إلى تمزيق الحبكة الروائية، كما كانت تعرف في صورتها التقليدية، والاستغناء عنها، في كثير من الأطوار، والاجتزاء بخيط واه من النسج الروائي الممزق؛ ثم جنوحهم لتدمير التركيبة الزمانية التي ألفها قراء الروايات، واستبدالها بألواح زمنية قابلة للتغير، قادرة على التقدم والتأخر (بالإضافة إلى التقنيات الأخرى التي تكتب عبرها الرواية الجديدة...): إنما يمثل، في الحقيقة، خيبة الأمل التي يمنى بها الإنسان المعاصر في وجوده الذي يتنازعه الموت والحرب، ويعصف به، نتيجة لذلك، القلق والخوف واليأس[ii].

ولقد تضافرت عوامل كثيرة بعضها تاريخي، وبعضها حضاري، وبعضها ثقافي؛ لتدفع بعجلة الرواية إلى مأزق تفجرت منه الرواية الجديدة، واتخذت لنفسها طرقا عريضة تسير فيها، وأنشأت لها عالما رحيبا تضطرب في مناكبه، ولعل من بين أهم هذه العوامل ما يأتي:

1- الحرب العالمية الثانية: لقد كان للحرب العالمية الثانية نتائج عميقة الأغوار، بعيدة الآثار، فأثرت في مجريات الأحداث في تسلسلها وتعاقبها، وتشابكها وتفاعلها؛ فأخذ بعضها بتلابيب بعضها الآخر، ذلك لأنه لا ينبغي وقف نتائج هذه الحرب المدمرة على الميادين السياسية وحدها، والتي من فروعها، أو أصولها، ميلاد معظم الحركات التحررية في العالم. وحتى ما كان منها مولودا قبل ذلك، أتيح له بعد وضع تلك الحرب أوزارها، أن ينمو باطراد ويعرف وجوده في إطار أقوى وأعمق وأوضح.

ونتيجة لذلك، فإن الرواية التقليدية في شكلها المألوف في الأدب العالمي، لم تعد شكلا أدبيا قادرا على التلاؤم مع الظروف الحضارية الجديدة، ولاسيما فيما يعود إلى طبيعة رؤية الرواية إلى العالم. إن أهوال تلك الحرب الفظيعة أفضت، بشكل مباشر، إلى التفكير في ابتكار شكل جديد للكتابة الأدبية بعامة، وللرواية بخاصة[iii].

2-الحرب التحريرية الجزائرية: لقد اقترن ميلاد الرواية الجديدة بحرب التحرير الجزائرية باعتراف من بعض الكتاب الفرنسيين أنفسهم، حيث يؤكد هذه الحقيقة الناقد الفرنسي ريمون جان فيقرر أن «ميلاد الرواية الجديدة صادف حرب التحرير في الجزائر»[iv]. ذلك لأن هذه الحرب الضروس هزت الشعب الفرنسي هزا عنيفا، كما كانت هزيمة معركة ديان بيان فو في الفيتنام هزته قبل ذلك بزمن قصير؛ كما هزت عقول المفكرين الفرنسيين فبدأ ذلك جليا في كتابات كثير منهم؛ مما ظهر في تلك الفترة المضطربة من تاريخ فرنسا.

3- استكشاف السلاح النووي: إن لهذا العامل الرهيب أثر في إنشاء الرواية الجديدة التي تقوم فلسفتها الأدبية على نبذ القيم، والكفر بالزمان، والتنكر للتاريخ، والاستسلام إلى العبث والقلق والتشاؤم.

4- غزو الفضاء:لقد كان لغزو الفضاء أثر على موت الرواية التقليدية، إذ إن كل تلك الأحداث المهولة كانت، بلا ريب، وراء نشأة الرواية الجديدة في شكلها المثير وعبثيتها الحيرى، التي هي في الحقيقة بمنزلة مرآة للإنسان المعاصر في أهوائه وتشاؤمه وتمزقه وإلحاده وقلقه وخوفه وشقائه[v].

ثالثا- رواية تيار الوعي.

كان هذا الاتجاه بمثابة ثورة عارمة علي الرواية التقليدية، و قد بدأ في الأدب الغربي في نهاية القرن التاسع عشر وامتدت إلي النصف الأول علي يد "ما رسل بروست (البحث عن الزمن الضائع)"، و " جيمس جويس (أوليس)"، و بهذا التيار ظهرت بلبلة في عالم الرواية، إذ قبل ذلك كان الطابع الأساسي للرواية هو تسلسل الأحداث، و تفاعل البطل مع هذه الأحداث، لكن بظهور هذا التيار تغير الأسلوب، و أصبح كتشاف العقل والباطن الخفي مثار الاهتمام، لأنه المحرك الأساسي للفكر والسلوك. و مقومات هذا الاتجاه أو التيار تتلخص فيما يلي[vi]:

1- المونولوج الداخلي المباشر، و فيه يغيب المؤلف، و يتم الحديث فيه بضمير المفرد و الغائب.

2- المونولوج الداخلي غير المباشر، و فيه يحضر المؤلف عبر الوصف و التعليق، و يقوم الحكي فيه بضمير المتكلم.

3- وصف الوعي الذهي للشخصيات.

4- مناجاة النفس.

5- التداعي الحر من طريق الخيال و الحواس.

7- المونتاج السينمائي عن طريق تعدد الصور و تواليها. وفي الأدب العربي تأثّر روائيون كثيرون في فترة الستينيات والسبعينيات بهذا التيار الذي أدي إلي تفاهم التعبيرات الرمزية في أعمالهم؛ منهم نجيب محفوظ (الشحاذ)، حيدر حيدر (الزمن الموحش)، هاني الراهب (ألف ليلة و ليلتان)، و غادة السمان ... وغيرهم.

والذي ساعد علي انتشار هذه المدرسة الروائية هي الروايات المترجمة المكتوبة بهذا الأسلوب ثم ترجمة مفاهيم علم النفس، و ترجمة آراء فرويد و... حيث أثّرت في انتشار ذلك.

رابعا- الرواية الطليعية.

و تعني استخدم تقنيات فنية جديدة تتجاوز الأساليب و الجماليات السائدة و المعروفة، لكن بهدوء و بطء و تمهّل. ولقد تميزت الرواية الطليعية باستخدام تقنيات السينما، و التقطيع إلي صور و لوحات مستقلة تعطي مجتمعة انطباعاً و إحساسا واحداً، كما تميزت باستخدام المونولوج الداخلي، و الفلاش بك في تصوير ماضي الأبطال، كما أن من ميزاته الأخري أسلوبها الشعري، و النسبية أو النظر إلي الحادثة الواحدة من زوايا مختلفة و عديدة[vii]، ومن الروائين العرب الذين تجلّت هذه العناصر في نتاجهم جمال الغيطاني، صنع الله ابراهيم، اميل حبيبي، جبرا ابراهيم جبرا، الطاهر وطّار، عبدالرحمن منيف، الياس خوري ... وغيرهم.

خامسا- الرواية التجريبية.

هذا الاتجاه أحدثُ اتجاه ظهر في العالم الروائي، والذي اعتمد عليه المعاصرون بوصفه تقنية جديدة من أجل تجاوز واقعهم الفني المستهلك، فقامت الرواية التجريبية علي توظيف البناءات والأحلام اللغوية و استقلال تقنيات الشعور و اللاشعور، و انثيال الوعي و اللاوعي والأحلام، و إلغاء عنصري الزمان والمكان و غير ذلك .

وقلد ظهر هذا الاتجاه بغية بناء أدب مضادّ للابداع المتعارف عليه مسبقا عن طريق تدمير البنيات الشكلية للرواية، والعناصر الفنية، و تفجير اللغة، والخروج علي الأنماط الروائية السائدة نحو الإبداع والإبتكار، و الولوع إلي عالم مستقبلي مجهول منقطعاً عن الماضي و الحاضر، متفائلا إلي المستقبل، ومن أشهر الروائيين الجدد، أحمد المديني حيث يري أن الرواية هي فيض لغوي و ثراء لفظي يتجاوز العادي والمألوف خارجاً عن البناء الروائي السابق. و من أشهر رواياته (زمن بين الولادة و الحلم)[viii].

ومما أغفلنا الحديث عنه من اتجاهات في هذه الدراسة رواية الوثائق، والرواية الغرامية، والرواية المسلسلة، ورواية الطفل، ورواية الجنس، والرواية التجسسية، والرواية الشمولية، والرواية الأسطورية...ومالا يكاد يحصى من أشكال هذا الجنس الأدبي الذي أمسى أميرا للأجناس الأدبية الأخرى؛ لا تنازعه هذه الأمارة ولا تطمع في ذلك.